﴿قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ ٢٩﴾ [الأعراف: 29]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الـعـلاقـةُ بين تَنْزيهِ الله عنِ الأمْرِ بالفاحشةِ، وبـيـانِ أَمْـرِه بجِماعِ الخيرِ كلِّه

بعد أن أبطلَ اللهُ زعمَهم في قولِهم السَّابقِ في فعلِ الفواحشِ بأنَّ اللهَ أمرَهم بهَا؛ فردَّ عليهم زعمَهم بقولِه تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ﴾، جاءت هذه الآيةُ؛ لتُبيِّنَ أنَّ اللهَ يأمرُهم بجِماعِ الخيرِ كلِّه في الدِّين بقوله: ﴿قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾.

وممَّا يُذكرُ في المناسبةِ - أيضًا - بعد أنْ أُنكِرَ عليهم أنْ يكونوا على علمٍ في هذا الطَّريقِ النَّقليِّ، وهو من بابِ السَّلْبِ والنَّفي، توجَّهتِ الأنفسُ إلى معرفةِ ما يأمرُ به تعالى من محاسنِ الأعمالِ ومكارمِ الأخلاقِ والخصالِ، فبيَّنَهُ بطريقِ الاستئنافِ قائلًا لرسولِه: ﴿قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾[1].

وأيضًا لمّا كانَ فعلُهم وقولُهم يخالفُ المعقولَ والمشروعَ في الكُتبِ السَّماويَّةِ كلِّها أعقبَه بالأمرِ بما قامَ في العقولِ أنَّه مستقيمٌ حسنٌ في المعقولِ والمنقولِ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾: القسطُ هو النَّصيبُ بالعدلِ كالنَّصفِ والنَّصَفَةِ، والقِسْطُ: هو أن يأخذَ قسطَ غيرِه، وذلك جورٌ، فهو من الأضدادِ، والإقْسَاطُ: أن يعطيَ قسطَ غيرِه، وذلك إنصافٌ، ولذلك قيل: قَسَطَ الرَّجلُ؛ إذا جار، وأَقْسَطَ؛ إذا عدلَ، فالقاسطون هم الجائرون، والمُقْسِطُون: العَادِلُونَ، وذهب بعضُ اللُّغويِّين إلى أنَّ القِسطَ هو

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 8/333.

العدلُ، والقَسطَ هو الجَور. و﴿بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ في الآية بمعنى: بالعدلِ، وهو الوسطُ من كلِّ أمرٍ، المتجافي عن طرفَيِ الإفراط والتَّفريط[1].

2) ﴿وَأَقِيمُواْ﴾: يدورُ معنى (قَوَمَ) على انتصابِ الشَّيءِ إلى أعلى ثابتًا، كقامةِ الإنسانِ، وقيامِه، وقامَ على الأمر: دامَ وثبتَ، فأداءُ الصَّلاةِ بشروطِها في أوقاتِها مع الجماعةِ والمداومةِ نصْبٌ وإقامةٌ لها، وإقامةُ الشَّيءِ: مراعاتُه وحفظُه والمداومةُ عليه وإعطاؤُه حقَّه وتوفيتُه شروطَه على الوجهِ الّذي ينبغي أنْ يكونَ عليه[2]. ومعنى ﴿وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ﴾: توجَّهوا إلى عبادة اللّه مستقيمين ثابتين غيرَ عادلين إلى غيرِها[3].

3) ﴿وُجُوهَكُمۡ﴾: أصلُ الوجهِ: العُضوُ المعروفُ منَ الإنسانِ، ولمّا كانَ الوجهُ أوّلَ ما يستقبلُك، وأشرفَ ما في ظاهرِ البدنِ استُعمِلَ في مستقبلِ كلِّ شيءٍ، وفي أشرفِه ومبدئِه، وقد يُطلقُ على توجُّهِ القلبِ وصحَّةِ القصْدِ. والمعنى: أخلصوا للّهِ العبادةَ[4].

4) ﴿مُخۡلِصِينَ﴾: الخُلوصُ: هو تنقية الشَّيء وتهذيبُه، وخلاصةُ السَّمن: ما خلَص منْه منَ الزُّبدِ الّذي أُذيبَ، والإخلاصُ تمحيصُ الشَّيءِ من مخالطةِ غيرِه، وحقيقةُ الإخلاص للّه تعالى هو التَّبرِّي عن كلِّ ما دون اللّهِ تعالى، والمُخْلَصُ: المختارُ، ليفيدَ معنى انتقائِه واتِّخاذِه من بين مَن حولَهُ، والمخلِصُ للّه: المتبرِّي عن كلِّ ما دونَ اللّهِ تعالى بتنقية قلبِه وتصفيتِه[5].

5) ﴿ٱلدِّينَۚ﴾: الدِّينُ يقالُ للطَّاعة والانقيادِ للشَّريعة؛ لما فيها من معنى اللُّزوم بقوَّةٍ، من قولهم: دِنْتُ لفلانٍ، أي: أطعْتُهُ، ويقال للملَّةِ، بمعنى لزومِها في القلب وتمكُّنِها فيه، ويأتي الدِّينُ بمعنى الحسابِ؛ لتعلُّقِ الأعمالِ بأصحابِها في ذمَّتِهم كالدَّيْن يُسألون عنها، وفيها – أيضًا – قَهْرُ الخضوعِ للمحاسبةِ. ومعنى ﴿ٱلدِّينَ﴾: الطاعةَ والعبادةَ[6].

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والفيّومي، المصباح المنير: (قسط)، وابن جرير، جامع البيان: 12/379، والبيضاويّ، أنوار التنزيل: 3/10.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (قوم).

(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/10.

(4) الأزهري، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات: (وجه)، ورشيد رضا، تفسير المنار: 8/334.

(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (خلص).

(6) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (دين).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

أمْرُ اللهِ بالعَدلِ في الـعِـبـاداتِ وفي المُعاملاتِ، بتَوجُّهٍ وإخلاصٍ

قلْ - أيُّها الرَّسولُ - لهؤلاء المشركينَ: أمرَ ربِّي بالعدْلِ، وأمرَكم بأنْ تتوجَّهوا إلى اللهِ تعالى وحدَه عندَ كلِّ مكانٍ متَّخَذٍ لعبادةِ اللهِ تعبدونَه فيه وتؤدُّوا حقَّه ولا تنصرفُوا عنه إلى سواهُ، وأنْ تدْعُوه مخلصينَ له الطَّاعةَ والعبادةَ، وأنْ تؤمنوا بالبعثِ بعدَ الموتِ، وكما أنَّ اللهَ أوجدَكم ابتداءً منَ العدمِ؛ فإنَّه قادرٌ على إعادةِ الحياةِ إليكم مرَّةً أخرى بعدَ الموت[1].

وترشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى العدْلِ في الأقوالِ وفي الأحكامِ، ووجوبِ إخلاصِ العبادةِ للهِ ﷻ صلاةً كانت أو دعاءً.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

مُناسبةُ مَجيءِ جُملةِ ﴿قُلْ﴾ بطريقِ الفصْلِ:

من براعةِ التَّعبيرِ القرآنيِّ، لفتُ الأذهانِ بطريقِ الفصْلِ

فُصِلَتْ هذه الجملةُ عنِ الّتي قبلها، ولم يُعطفِ القولُ على القول، ولا المقُولُ على المقُولِ؛ لأنَّ في إعادةِ فعْلِ القول وفي ترك عطفِه على نظيره لفتًا للأذهانِ إليه، ليعلمُوا ما شأنُه أن يأمرَ اللهُ به ممَّا لهُ مزيدُ عنايةٍ واهتمام، ولمضادَّته لمدّعاهُمُ المنفيِّ في جملةِ: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [الأعراف: 28][2]. وفيه إشارةٌ إلى توجيههم إلى العقيدةِ السَّليمةِ وتركِ ما كانوا عليه منَ الضَّلالِ.

نُكتةُ تَصديرِ الكلامِ بقولِهِ تعالى: ﴿قُلْ﴾:

الإشعارُ ببيانِ معنًى جديدٍ ينبغِي الاهتمامُ به

تقدَّمَ بيانُ نُكتةِ التَّصدير بلفظِ ﴿قُلْ﴾ في الآيةِ السَّابقةِ، وفي إعادة اللَّفظِ إشعارٌ ببيانِ معنًى جديدٍ ينبغِي الاهتمامُ به كذلك.

وفيه إشارةٌ بأنَّ ما سيقولُه الرّسولُ ﷺ إنَّما هو بطريقِ الوحْي، وعليهم أن يتَّبعوه فيما يقولُ، ويتركوا ما زعمُوه من قولِهم: اللَّه أمرنا بارتكابِ الفواحشِ.

(1) ابن جرير، جامع البيان، تح، شاكر: 12/387، ونخبة من العلماء، التّفسير الميّسر، ص: 153.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/86.

نُكتةُ التَّعبيرُ بالفعلِ الماضِي، في قولِه تعالى: ﴿أَمَرَ﴾:

مَـــنْ يـأمـرْ بالقِسطِ لا يأمرْ بالفحشاءِ

في التَّعبيرِ بصِيغةِ الفعلِ الماضِي ﴿أَمَرَ﴾ تكذيبٌ لافتراءِ المشركين فيما ادَّعَوه، فلمَّا قالوا: ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾؛ ناسبَه أنْ يأتيَ بصيغةِ الماضي، فإذا كانَ يأمرُ بالقسطِ؛ فكيف يأمرُ بالفحشاء؟ ففي التَّعبيرِ به معنى إثباتِ الأمرِ بالقسطِ وتأكيدِ نفْيِ أمرِه بالفحشاءِ[1].

سِرُّ التَّعبيرِ المجرّدِ، بقولِه تعالى: ﴿أَمَرَ رَبِّي﴾:

الإشـارةُ إلى أنَّ المـأمـورَ بـه، في طـاقـةِ المُكلَّفينَ جميعًا من بنِي آدمَ

جاء التَّعبيرُ بقولِه تعالى: ﴿أَمَرَ رَبِّي﴾ دون تخصيصِه ﷺ كأن يقول: (أمرني ربي)، أو مخاطبتِهم بقولهم: (أمركم ربُّكم)؛ للإشارةِ إلى أنَّ المأمورَ به في طاقة المُكلَّفينَ جميعًا من بني آدمَ، وهذا دليلٌ على أنَّ التشريعاتِ الإلهيَّةَ في قُدرةِ المُكلّفين.

سِرُّ التَّعبيرِ بالرُّبوبيَّةِ دونَ الألوهيَّةِ، في الآيةِ الكريمةِ:

التَّعبيرُ بوصْفِ الـرُّبـوبـيَّـةِ في هـذا المـقـامِ، هو الأنـسـبُ لـلـرَّدِّ على المُشركين

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي﴾، عبَّرَ بوصْفِ الرّبوبيةِ هنا، ولم يقل: (أمرَ اللّه)؛ إذِ التَّعبيرُ بوصْفِ الرُّبوبيَّةِ في هذا المقام هو الأنسبُ للرَّدِّ على المُشركين، لما فيه من تذكيرِهم بربوبيَّته سبحانه الّتي من شأنِها الرَّحمةُ بخلقِه؛ فلا يأمرُهم إلَّا بما فيه صلاحُهم في الدُّنيا والآخرة.

دَلالةُ حذْفِ مفعولِ ﴿أَمَرَ﴾:

العُمومُ والإيجازُ

أفادَ حذفُ مفعولِ ﴿أَمَرَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِٱلْقِسْطِ﴾ العمومَ، والمعنى: أمرَ كلَّ النَّاسِ، فيدخلُ فيه الّذينَ افترَوْا على اللّهِ تعالى دخولًا أوَّليًّا لمناسبةِ السِّياقِ، ونكتةُ حذفِ المفعولِ الإيجازُ.

مُناسبةُ الإضافةِ في قولِه تعالى: ﴿رَبِّي﴾:

القِسْطُ الّذي أمرَ به اللهُ تعالى، هـو مـا عـليـه رسـولُـه الأكـرمُ ﷺ

لم يقلْ: (أمرَ اللّهُ بالقسط) ولا (أمر ربُّنا) بصيغةِ الجمعِ، بل جاءَ التَّعبيرُ بصيغةِ الإضافةِ الدَّالَّةِ على التَّخصيصِ؛ للإيذانِ بأنَّ ما عليه رسولُ اللّهِ ﷺ هو القسطُ الّذي أمرَ به اللّهُ تعالى، وللإشعارِ

(1) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/330، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/2813.

ببُعدِ الّذينَ يفعلون الفاحشةَ عن مُدبِّر أمورِهم ومالكِهم بما فعلوهُ، وافترَوْا به على اللّهِ تعالى، وفيه تشريفٌ للنبيِّ ﷺ وتوبيخٌ للمُشركين بسلْبِ وصْفِ الرُّبوبيَّةِ عنهم.

نُكتةُ التَّعبيرِ بلفظِ (القِسْطِ):

الأمـرُ بالعَـدْلِ والاعـتـدالِ في الأمورِ كُلِّها، هو مأمورُ الله تعالى

آثرَ التَّعبيرَ بلفظِ القسطِ؛ لأنَّه بمعنى العدْلِ، وهو منَ المعاني الكلِّيَّةِ الّتي تشملُ كلَّ ما هو وسطٌ في الاعتقادِ والأخلاقِ والعملِ[1]، ودلَّ على أنَّ فعلَهم ليس منَ القسطِ، وأنَّهم قد أفرطُوا في المنكرِ في الاعتقادِ والأخلاقِ والعملِ.

وكذلك هذه الكلمةُ تدورُ بِنيتُها اللّغويَّةُ على معنيَي العدلِ والجَورِ؛ فإذا قلتَ: أقسطَ الرّجلُ في حُكمه؛ فهو مُقسطٌ، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [المائدة: 42] وتقول: قَسطَ الرّجلُ، بمعنى: جارَ، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾ [الجنّ: 15]، وعلى ذلك اختِيرَ هذا اللَّفظُ؛ ليخدمَ قضيَّتين: الأولى: وصف سلوكِ المشركين فيما فعلوا منِ ارتكابِ الفواحشِ وتقَوُّلِهم على اللّه بأنَّه ظُلمٌ وجَور.

والقضيَّةُ الثّانيةُ: أنَّ ما أمرَ اللّهُ بهِ في قولِه تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ﴾ هو العدلُ الّذي يعملُ على صيانة المُجتمع من غوائلِ الشِّرك وأوهامِ الضَّلال، يؤكِّدُ ذلك أنَّ (أل) في ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾ للجنسِ، أي: العدلُ بمعناه: الأعمِّ؛ أي: الفعلُ الّذي هو وسطٌ بين الإفراط والتَّفريطِ في الأشياءِ، وهو الفضيلةُ من كلِّ فعْلٍ. وأيضًا؛ لأنَّ القسطَ صفةٌ للفعْلِ في ذاتِه، بأن يكونَ مُلائمًا للصَّلاحِ عاجلًا وآجلًا.

الأمـرُ بالتّوجُّهِ للهِ، والاجتهادِ في تـكـمـيـلِ العباداتِ

مناسبةُ العطْفِ بفعْلِ الأمرِ ﴿وَأَقِيمُوا۟﴾:

العطفُ في قولِه تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ على

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 8/370.

نيَّةِ تكرير الفعْلِ (قُلْ)، والتَّقديرُ: قل أمرَ ربِّي بالقسطِ، وقل: أقيمُوا وجوهَكم عندَ كلِّ مسجدٍ وادْعُوه مخلصينَ له الدِّينَ[1].

سِرُّ عدمِ تَكرارِ لفْظِ (قُلْ)، مع قولِهِ تعالى ﴿وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ﴾:

عطفُ الخاصِّ على العامِّ لمزيد الاهتمام

لم يكرِّرْ لفظَ (قُلْ)؛ للإشعارِ بأنَّ قولَه تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ هو منَ القِسطِ، فيكونُ من عطفِ الخاصِّ على العامِّ، لمزيدِ اهتمامٍ بما جاء بصيغة الأمرِ.

جُملة ﴿وَأَقِيمُواْ﴾ بين الخبرِ والإنشاءِ:

جوازُ عطفِ الجملةِ الخبريَّةِ، على الجملةِ الإنشائيَّةِ

تعدَّدت آراءُ العلماءِ في هذه المسألة بين مُجيزٍ ومانعٍ: فالّذين قالوا بالمنعِ بناءً على أنَّ جملةَ ﴿وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ﴾ إنشائيَّةٌ لفظًا ومعنًى، وجملةَ ﴿أَمَرَ رَبِّي بِٱلْقِسْطِ﴾ خبريَّةٌ لفظًا ومعنًى؛ لذلك أوَّلُوا بعدَّةِ تأويلاتٍ منها: تقديرُ (قُلْ): أي: (وقل أقيموا وجوهكم).

وذهب عبدُ القاهر الجُرجانيُّ وبعضُ المفسِّرين إلى أنَّ قولَه تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِٱلْقِسْطِ﴾ تضمَّن معنى (أقسطوا) بقرينة ﴿أَمَرَ﴾، فعطفَ عليه قولَه: ﴿وَأَقِيمُواْ﴾ حملًا على المعنى، وتقديرُ الكلام: (قل يقول ربِّي: أقسطوا وأقيموا)[2]، أو يقال: إنَّ ﴿وَأَقِيمُواْ﴾ مَعْطُوفٌ عَلَى مَا يَنحَلُّ إِلَيْهِ المَصدَرُ الَذِي هُوَ القِسطُ، أَي: بِأَنْ أَقسِطُوا وَأَقِيمُوا[3]، ويحتملُ أنْ يكونَ تقديرُ الكلام: أمرَ ربِّي بالقسطِ وبإقامةِ وجوهِكم عندَ كلِّ مسجدٍ، فعدلَ عنِ الفعل الماضي إلى فعل الأمرِ؛ توكيدًا لما أُجريَ عليه فعلُ الأمرِ في قولِه تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾؛ لمكانِ العنايةِ بإقامةِ الوجوهِ عندَ كلِّ مسجدٍ والإخلاصِ في العملِ[4].

وذهبَ البعضُ إلى جوازِ عطْفِ الخبرِ على الإنشاءِ، وهذا واضحٌ عند ابنِ عاشورٍ في تفسيرِه، لمن أراد التفصيلَ.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/99، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/226.
(2) السّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 5/279.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/37.
(4) ابن الأثير، المثل السائر: 2/12، والعلويّ، الطّراز: 2/73.

العُدول عنِ الأسلوبِ الخبريِّ إلى أسلوبِ الأمرِ ﴿وَأَقِيمُواْ﴾:

جـذْبُ الانتباهِ، وإثـارةٌ لكوامنِ نـفـوسِ المـشـركـين، للالتفاتِ للنّافعِ

النَّاظرُ في أسلوب الآيةِ يجدُ أنَّه جاء مُغايرًا لما سبقَ في قولِه تعالى: ﴿أَمَرَ رَبِّي بِٱلْقِسْطِ﴾، وهو أسلوبٌ خبريٌّ، وكان مُقتضَى الكلامِ في غير القرآن، أن يأتيَ على نمطٍ واحدٍ، بأن يُقالَ: (أمر ربي بالقسط وبإقامة وجوهكم عند كلِّ مسجدٍ)؛ لكنَّه جاء بأسلوبِ الأمرِ ﴿وَأَقِيمُواْ﴾ جذْبًا للانتباه، وإثارةً لكوامن نفوس هؤلاء المشركين وخفاياها لما هو أنفعُ لهم، وفيه إشارةٌ - أيضًا - إلى التَّأهُّبِ والاستعداد لتلقِّي ما يُلقَى عليهم.

بَلاغةُ الاستعارةِ، في قولِهِ تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ﴾:

الإقامةُ أنْ تَضعَ الشَّيءَ فيما هُيِّئَ له، وطُلبَ إليه

قوله: ﴿وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ﴾، لمّا كانَ أصلُ القيامِ في اللُّغة هوالانتصابُ المضادُّ للجلوسِ والاضطجاعِ، وإنَّما يقومُ القائمُ لقصْدِ عملٍ صعْبٍ لا يتأتَّى من قعودٍ؛ كان قولُه تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ﴾ استعارةً تبعيَّةً، فقدْ شبَّهَ توجُّهَ ذواتِ النَّاس لعبادة ربِّ العالمين، وتشمُّرَهم في الأمرِ، وجَلَدَهم فيه مع المحافظةِ والمداومةِ عليه مع الإشعارِ بِثِقَلِ الأمرِ، بجعلِ الشَّيءِ قائمًا، كما أنَّه عُبِّرَ بـ﴿وَأَقِيمُواْ﴾؛ لأنَّ الإقامة أنْ تضعَ الشَّيءَ فيما هُيِّئَ له، وطُلبَ إليه، وإنْ وجَّهته لناحيةٍ ثانيةٍ تكونُ قد ثنيتَه، وأمَلْتَه، وحَنَيتَه، وعَوَجتَه[1].

سِرُّ التَّعبيرِ بالضَّميرِ في قولِه تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ﴾:

يُحملُ الضّميرُ عـلى عُـمـومِ المـشـركـين والمؤمنين

عُبِّر بالضَّمير في قولِه: ﴿وَأَقِيمُواْ﴾، وإن كان المرادُ به (المشركين)؛ لأنَّهم المُتَّصفون بعدم إقامةِ وجوهِهم للّه في العبادة، ومع ذلك؛ فلا مانعَ أن يكونَ المرادُ بالأمرِ المؤمنين؛ لأنَّ لهم حظَّ الدَّوامِ على إقامةِ وجوهِهم عند كلِّ مسجدٍ.

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 8/370، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/231، والشّعراويّ، تفسير الشّعراوي: 7/4107.

لفظ ﴿وُجُوهَكُمْ﴾ بين المجازِ المرسلِ والاستعارةِ:

توقيرُ المساجدِ، بإعطائِها حقَّها في الاحـــترامِ والإجلالِ

إمَّا أنْ يكونَ المرادُ منَ الوجوه الذّواتِ؛ ليكونَ مجازًا مرسلًا بذكرِ الجُزءِ وإرادةِ الكلِّ؛ لأنَّ الوجهَ يُستعملُ في مستقبلِ كلِّ شيءٍ، وفي أشرفِه ومبدئِه، والمعنى توجَّهوا، أي: بذواتِكم إلى عبادتِه عندَ كلِّ مسجدٍ، وإمَّا أنْ يكونَ استعارةً تصريحيَّةً للمقصدِ والمنزعِ، أي: أقيموا قصدَكم وتوجُّهَكم إلى عبادتِه عند كلِّ مسجد[1]، وعلى التَّوجُّهَين، يكونُ للتَّعبير بالوجهِ دونَ غيرِه من الأعضاءِ إشعارٌ بأهمِّيَّتِه؛ لأنَّه يكون مَوْضِعًا للسُّجود بوضْعِ الجبهةِ على الأرض، وفي هذا إقرارٌ وخضوعٌ للّه ربِّ العالمين، وفيه توقيرُ المساجدِ وإعطاؤها حقَّها في الاحترامِ والإجلالِ، فلا يصحُّ أن يكون فيها عُرْيٌ: أو ما يكون رذيلةً في ذاتِه، أو ما يبعثُ على الرَّذيلة، وأن يكونَ الاحتشامُ هو الزيُّ الأكملُ[2].

وممّا يُذكرُ في سرِّ التَّجَوُّز بالاستعارة ما لهُ من دورٍ مهمٍّ في تأكيدِ إخلاصِ العبادةِ للّه وحده بأن تكونَ مبنيَّةً على التَّوحيدِ، وعلى عدمِ الانشغالِ بالإغراءاتِ الدُّنيويَّةِ الّتي تُخرجُ العبدَ عن توجُّهِه للّهِ.

دَلالةُ قولِهِ تعالى: ﴿عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾:

مـــن بـــراعـــةِ أُسلوبِ القرآنِ، تـعـــدُّدُ المعنى بإيجازِ اللَّفظِ

لمّا كانت صيغةُ ﴿مَسْجِدٍ﴾ تحتملُ أنْ تكونَ اسمَ زمانٍ أو مكانٍ؛ دلَّ على أنَّ المرادَ أقيمُوا وجوهكم عند وقتِ كلِّ صلاةٍ، والمعنى: أقيموا وجوهَكم في أيِّ مسجدٍ حضَرتْكم الصّلاةُ عنده ولا تؤخِّروها، أو عندَ مكانِ كلِّ سجودٍ، أي: الصلاةُ كذلك؛ للإشعارِ بأنَّ الأرضَ كلَّها مسجدٌ، وحينئذٍ تكونُ ﴿كُلِّ﴾ تفيدُ العمومَ على سبيل البدلِ، أي: الكلُّ الإفراديُّ[3]، ويحتملُ أنْ تكونَ الصّيغةُ مصدرًا ميميًّا فيقدَّرَ الوقتُ والمكانُ بإرادة

(1) ابن عطيّة، المحرر الوجيز: 2/391، والبيضاويّ، أنوار التنّزيل: 3/10، والقونويّ، حاشيته على البيضاويّ: 8/370.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/2813.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/99، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/227، والبيضاويّ، أنوار التنّزيل: 3/10.

المعنيَيْن من صيغةٍ واحدةٍ، وهذا من براعةِ أسلوبِ القرآن، فيكونَ من تكثيرِ المعنى بإيجازِ اللَّفظ، والمعنى: أقيمُوا وجوهَكم عِنْدَ وَقْتِ كُلِّ سُجُودٍ، فلا تؤخِّروا الصَّلاة، وَفِي مَكَانِ كلِّ سُجُودٍ، فالأرضُ كلُّها مسجدٌ؛ للإشعارِ بأنَّ الأرضَ كلَّها مسجدٌ، وفي كلِّ الأوقات[1]، ويحتملُ أنْ يكونَ المرادُ هو المسجدُ الّذي تقامُ فيه الصَّلاةُ، فالمقصودُ إقامةُ الصَّلاة في المكانِ المخصوص، وله متَّجهٌ، وهو الكعبةُ، أي: أقيموا وجوهَكم عند كلِّ مكانٍ تصلُّون فيه إلى الكعبة[2]، وذهب ابنُ عاشورٍ إلى أنَّ سياقَ الآية لمّا كان في مقامِ الرَّدِّ على المشركين الّذينَ ادَّعوا أنَّ ما يقومون به من فعْلِ الفاحشة وطوافِهم بالبيتِ وقتَ الحجِّ عُراةً هو بأمرِ اللّه لهم، ولمّا كان اسمُ المسجدِ منقولًا في الإسلام للمكان المعيَّنِ المحدودِ المتَّخَذِ للصَّلاةِ، ولم يكنْ لهم مساجدُ غيرَ شعائرِ الحجِّ، كانَ ذكرُ المساجدِ في الآية يُعيّنُ أنَّ المرادَ إقامةُ الوجوه عند التّوجُّه إلى اللّهِ في الحج بأنْ لا يُشركوا مع اللّهِ في ذلك غيرَه من أصنامِهم بالنِّيَّةِ، أفادَ أنَّ الأمرَ بإقامةِ الوجوه عند المساجدِ كلِّها أمرٌ بالتزامِ التَّوحيد وكمالِ الحالِ في شعائرِ الحجِّ كلِّها، فهذهِ مناسبةُ عطْفِ قولِه: ﴿وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ عقبَ إنكارِ أنْ يأمرَ اللّهُ بالفحشاءِ من أحوالِهم، وإثباتِ أنَّه أمرَ بالقسطِ مما يضادُّها، وهذا الأمرُ، وإنْ كانَ المقصودُ به المشركين؛ لأنَّهم المتَّصفونَ بضدِّه، فكانَ للأمرِ بإقامة الوجوهِ عندَ كلِّ مسجدٍ حظُّ الدَّوامِ عليه للمؤمنين، كما كان حظُّ الإعراضِ عنه والتَّفريطِ فيه للمشركين[3].

دَلالةُ الواوِ، في قولِه تعالى: ﴿وَٱدْعُوهُ﴾:

دلالةُ الواو: العطفُ؛ لأنَّها عطفتْ هذه الجملةَ على ما قبلَها ﴿وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ﴾؛ لاتِّفاقِهما في الإنشائيةِ لفظًا ومعنًى، ولما

الإرشـــادُ إلى المنهجِ القويمِ، في عـبـادةِ اللّه سُبحانه

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 5/38، والسّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 5/279.
(2) ابن جرير، جامع البيان، تح، شاكر: 12/380.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/88.

بينَهما من اشتراكٍ في الهدف؛ فهما يُرشدانِ إلى المنهجِ القويمِ في عبادةِ الله سبحانه.

سِرُّ التَّعبيرِ بالدُّعاءِ دونَ العبادةِ، في ﴿وَٱدۡعُوهُ﴾:

عبَّرَ بالدُّعاءِ عنِ العبادةِ في قولِه تعالى: ﴿وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ﴾ ؛ لأنَّ الدُّعاءَ يأتي بمعنى العبادةِ، ويأتي بمعنى الدُّعاءِ الحقيقيِّ، وهو التَّضرُّعُ، والعبادة تشملُ الدّعاءَ، وعلى هذا يكونُ التّعبيرُ بالدُّعاء عنِ العبادة من بابِ المجاز المُرسَلِ من باب إطلاقِ الخاصِّ على العامّ، والغرضُ منه بيانُ أثرِ الدُّعاء في قُربِ العبدِ من ربِّه، وإظهارِ الخضوع والتّذلّل له سبحانه.

الدُّعاءُ أساسُ التّقرّبِ إلى الله، ومُخُّ العبادةِ

دَلالةُ التَّعبيرِ بقولِه تعالى: ﴿مُخۡلِصِينَ﴾:

جاء التَّعبيرُ بقولِه: ﴿مُخۡلِصِينَ﴾ للدّعوةِ إلى العبادةِ الحَقَّةِ الّتي لا تشوبُها شوائبُ الشِّرك، وذلك لوجودِ من يعبدُ اللّه، ويشركُ معه غيرَه، كما فعلَ مُشركُو العربِ.

الدّعوةُ خالصةٌ لله وحدَه

سِرُّ التَّعبيرِ باسْمِ الفاعلِ ﴿مُخۡلِصِينَ﴾ دونَ الفعْلِ (وأخلصوا):

عبَّرَ باسمِ الفاعل لدلالتِه على الثُّبوتِ والدَّوامِ، وهذا هو نهجُ المُسلمِ الحقيقيِّ في عبادتِه، وهو مَجْلوٌّ في اللّفظِ والعبارةِ.

دَلالةُ تقديمِ: ﴿لَهُ﴾ في السِّياقِ:

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿لَهُ﴾ على المفعول ﴿ٱلدِّينَۚ﴾؛ لإفادةِ تخصيصِ الإخلاصِ للّهِ تعالى وقصرِه عليه.

دَلالةُ (أل) في لفظِ: ﴿ٱلدِّينَۚ﴾:

أفادت (أل) هنا العهدَ الذهنيَّ، والتَّعبيرُ بها في هذا المقام؛ لتنْبيههم إلى الدِّين الحقِّ الّذي جاء على لسان رسولِه ﷺ والمرادُ الإخلاصُ في كلِّ أركانِ الدِّين.

الإيماءُ إلى الإخلاصِ، في كلِّ أركانِ الدِّين

مُناسبةُ التَّعبير بـ﴿ٱلدِّينَ﴾ في الآيةِ الكريمةِ:

عُبِّرَ بـ﴿ٱلدِّينَ﴾: دونَ الطَّاعةِ أوِ العبادةِ؛ لما يُشعرُ به لفظُ ﴿ٱلدِّينَ﴾ منَ الانقيادِ في الظَّاهرِ؛ ليكونَ مطابقًا للإخلاصِ الّذي يكونُ في الباطن.

دَلالةُ فصْلِ جُملةِ: ﴿وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ عمَّا قبلَها:

التَّحذيرُ من مَغَبَّةِ المخالَفةِ لأوامرِ الله

فُصلتْ هذه الجملةُ عمَّا قبلَها؛ لأنَّها تعليليَّةٌ، وغرضُها التَّحذيرُ من مَغَبَّة المخالفة لأوامرِ اللهِ الّتي سبقَ ذكرُها في الآية من إقامة الوجوهِ عند كلِّ مسجدٍ والإخلاصِ في العبادةِ.

بَلاغةُ التَّشبيهِ في﴿كَمَا بَدَأَكُمْ﴾:

إعادةُ إحياءِ الخلْقِ عندَ اللهِ كَبَدْئِهِم

شبَّه الإعادةَ بالإبداءِ في قولِه تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾، والمعنى: عودُكم بعدَ الموتِ مثلُ بدئِكم؛ تقريرًا لإمكانِ عَوْدِكم والقُدرةِ عليه، ولمّا كان التَّقديرُ: تعُودُون عَوْدًا مثلَ ما بدأكم، كان تقديمُ المتعلَّق الدّالِّ على التَّشبيهِ ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ﴾ على فعلِه ﴿تَعُودُونَ﴾؛ للاهتمامِ به ولِلتَّذكيرِ بخَلقِهم الأوَّلِ، ولينبِّهَ العاقلَ على أنَّ قضاءَ اللهِ تعالى للشُّؤونِ لا يخالفُ قدَرَهُ وعِلمَه الأزليَّ البتَّةَ، ولمّا كان الأصلُ في المشبَّه به أنْ يكون أقوى منَ المشبَّه؛ دلَّ على أنَّ الإعادةَ أسهلُ من بدءِ الخلقِ، ولهذا قال اللهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: 27]، وليس المعنى تشبيهَهم بالبَدَاء، إنَّما المعنى على إعادةِ الخَلْق، كما ابتُدِئَ[1].

مُناسبةُ التَّعبيرِ بالفعْلِ ﴿تَعُودُونَ﴾:

تصويرُهم في حالةِ العَوْدِ؛ لبيانِ قُدرةِ الله تعالى

لمّا كانَ المعنى: (كما بدأ خَلْقَكم يعودُ خلقُكم)، فليس المَعنَى تشبيهَهم بالبَدءِ، إنَّمَا المعنى على إعادة الخلقِ كما ابتُدِئَ، أفادَ حذفُ (خلق) في الموضعين، تصويرَ حالةِ كمالِ خلقِهم،

(1) البيضاويّ، أنوار التنزيل: 3/10، والطّيبي، فتوح الغيب: 6/370، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/89.

وتصويرَهم في حالةِ العَوْدِ؛ ليكونَ الكلامُ أكثرَ ظهورًا في بيانِ قُدرةِ اللّه سبحانه[1].

نُكتةُ العُدولِ عنِ التَّشبيهِ بالمصدرِ، إلى التَّشبيهِ بالفعْلِ:

التّنبيهُ على تَرتُّبِ سُرعةِ عَوْدِهم على إعادتِه سُبحانه لهم

لّما كان الظَّاهرُ أنْ يكونَ التَّشبيهُ في قولِه تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ من تشبيهِ الحدَثِ بالحدَثِ، أي: تشبيهُ إعادةِ اللّهِ الخلقَ بالبدْءِ في خلْقِهم؛ كانَ مجيءُ تشبيهِ الفعلِ بالفعلِ مُنبِّهًا على ترتُّبِ سرعةِ عَوْدِهم على إعادتِه سبحانه لهم، كما أنَّ الغرَضَ منَ التَّشبيهِ هو التَّشبيهُ في نفسِ الإحياءِ والخلْقِ لا في نوعِ الحدثِ وكيفيَّتِه، فطُوِيَت الإعادةُ، وذُكِرَ الفعلُ ﴿تَعُودُونَ﴾[2].

دَلالةُ إسْنادِ أمرِ الإعادةِ إليهم، في قولِه تعالى: ﴿تَعُودُونَ﴾:

الإشارةُ إلى أنَّ الإعادةَ أهونُ عليه منَ البدْءِ

أسندَ الإعادةَ إليهم، ولم يُسندْها إليه سبحانه؛ كما في قولِه: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ﴾، وكان مقتضَى السِّياقِ في غيرِ القرآنِ أن يُقالَ: (كما بدأكم يعيدُكم)، بإسنادِ الأمرين إليه؛ وذلك للإشارةِ إلى أنَّ الإعادةَ أهونُ عليه منَ البدءِ، فلاتحتاجُ إلى مَزيدِ عناءٍ، كأنَّه عادَ بنفسِه، بحيثُ لو تُصُوِّرَ الاستغناءُ عنِ الفاعلِ؛ لكان في الإعادةِ دون البدءِ، سواءٌ كانت الإعادةُ الإيجادَ بعد الإعدامِ بالكُلِّيَّةِ، أو بجمْعِ مُتفرِّقِ الأجزاءِ.

سَببُ إيثارِ مَجيءِ الكلامِ بأسلوبِ التَّشبيهِ:

الاحتِجاجُ على المشركين في إنكارِهم البعثَ

أفادَ التَّشبيهُ الاحتجاجَ على المشركين في إنكارِهم البعثَ وإعادةَ الخلْقِ عَودًا جديدًا، كما أفادَ الحثَّ على امتثالِ الأوامرِ الّتي ذكرتْ في الآيةِ، كما أشعرَ بمجازاةِ المُحسِنِ على إحسانِه والمُسيءِ على إساءتِه، والمعنى: أنّه تعالى يُعيدُكم، فيُجازيكم على أعمالكم، فأخلصُوا له العبادةَ[3].

---

(1) السّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 5/279.

(2) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/331، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 8/371، والقنوجيّ، فتح البيان: 4/329.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/99، والقنوجيّ، فتح البيان: 4/329.

دَلالةُ التَّعبيرِ بالماضِي ﴿بَدَأَكُمْ﴾، والمضارعِ ﴿تَعُودُونَ﴾:

بيانُ تحقُّقِ وقوعِ البـدْءِ، وتجـدُّدِ حدوثِ العَوْدِ

جاء التَّعبيرُ بالماضِي الّذي يدلُّ على تحقُّقِ الوقوعِ مُتناسِبًا مع تحقُّقِ البدْءِ، والتَّعبيرُ بالمضارع في ﴿تَعُودُونَ﴾، الّذي يدلُّ على الحدوثِ والتَّجدُّدِ مُناسبًا لما سيكونُ في المُستقبلِ.

دَلالةُ حذْفِ مُتعلَّقِ ﴿تَعُودُونَ﴾:

وضوحُه ودَلالةُ السِّياقِ عليه، مـنَ الـبـيـانِ الفصيحِ

حُذفَ مُتعلَّقُ ﴿تَعُودُونَ﴾ لدلالةِ السِّياق عليه؛ لأنَّه لا عودةَ هناك إلَّا للهِ ﷻ؛ فلا مُنازعَ ولا شريكَ تعودون إليه؛ لأنَّه مالكُ يومِ الدِّينِ.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث عشر، سورة الأعراف من الآية 14 إلى الآية 87
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة الأعراف من الآية 14 إلى الآية 87 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 13 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-09-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 13 : سورة الأعراف من الآية 14 إلى الآية 87.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-09-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6551762 بتاريخ 2023/12/20م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»